الفصل السابع

الإنسان والفلسفة

الحقيقة هى الواقع بعين ورؤية غير متحيزة، والحقيقة ليست شيئاً ثابتاً، إنها حوار و اختلاف وهي ذاتية لأنها لا تتكرر في كل واحد منا، إنها أخلاق وفضيلة وليست قضية معرفية وغاية مذهبية بعيدة عن شروط ووجود الإنسان. إن مفهوم الحقيقة في دلالته الشائعة غالبا ما يستند على معيار أساسي هو معيار الواقعية. هكذا يكون الحقيقي هو الوجود القابل للإدراك الحسي المباشر، أو القابل للتحقق الواقعي. فمعيارية الحقيقة ليست مطابقتها للواقع، أو فى ملاءمتها للنزوع نحو الكائن المطلق حيث تكمن قدرته.

معايير الحقيقة

من أين تستمد الحقيقة قيمتها؟ ما الذي يجعل الحقيقة مرغوبا فيها وغاية وهدفا للجهد الإنساني؟ إذا كان هدف الحقيقة هو معانقة اليقين في إنتاجها لمختلف

أصناف المعارف وفي مختلف وسائل الإقناع وبسط سلطاتها المعرفية، فإننا نكون أمام تعدد معايير الحقيقة. فما هو معيار الحقيقة؟ هل هو معيار منطقي أم مادي؟ يرى ديكارت أننا لا نخطئ إلا حينما نحكم على شيء لا تتوافر لدينا معرفة دقيقة عنه، ويعتبر أن الحقيقة بسيطة ومتجانسة خالصة وبالتالي متميزة وواضحة بذاتها. فالحقيقي بديهي بالنسبة للعقل ولا يحتاج إلى دليل، وهو متميز عما هو ليس حقيقيا، إنه قائم بذاته كالنور يعرف بذاته دونما حاجة إلى سند كما قال اسبينوزا، واللاحقيقي كالظلام يوجد خارج النور. فالفكرة الصحيحة (الكل أكبر من الجزء) صادقة دوما ونقيضها خاطئ دوما.

الفيزياء وفلسفة السيكولوجيا

يمكن رسم خريطة الصراع القائم بين دراسة العقل على أساس البيولوجيا (أي النيوروفلسفة)

ودراسة العقل على ضوء الفيزياء (أي الفيزيوفلسفة). فنبدأ بشرح الارتباطية كنظرية علمية في تحليل العقل وفهمه، ثم ننتقل إلى الفلسفة المعتمدة عليها ألا وهي النيورو فلسفة التي يقدمها الفيلسوف بول تشرتشلاند. وبعد ذلك نسعى في إيضاح الفيزيو فلسفة ومقارنتها مع النيورو فلسفة .

يقدّم الفيلسوفان هورغن و تينسن شرحاً مفصلاً لفلسفة السيكولوجيا التي تعنى بدراسة العقل على ضوء الاعتبارات العلمية. بالنسبة إليهما، النظرية الأصدق هي النظرية الارتباطية. ففي العقود الأخيرة طُرحت الارتباطية كنظرية جديدة في دراسة العقل. هذه النظرية تقدم تصوراً مختلفاً عما كان سائداً في الأوساط العلمية والفلسفية حول ماهية العقل و عمله. فبالنسبة إلى النموذج العلمي الذي سيطر مع نشوء الكومبيوتر، العقل مجرد كومبيوتر متطور يعمل على ضوء قوانين وبرامج محدّدة. أما الارتباطية كنموذج علمي جديد للعقل فتعتبر أن تحليل العقل و تفسيره على أساس أنه كومبيوتر هو تحليل خاطئ. بالنسبة إلى الارتباطية، العقل ليس محكوماً بقوانين وبرامج، ولذا ليس كومبيوتراً. هكذا تختلف الارتباطية عن دراسة العقل على أنه كومبيوتر. والحجة الأساسية على مقبولية الارتباطية هي أن العقل غني ومرِن وقابل للتكيف و التغير على نقيض من الكومبيوتر المقيّد ببرنامج أو آخر.

بالنسبة إلى الارتباطية، يتكون العقل من شبكات نيورونية أو من شبكات شبيهة بالشبكات النيورونية. تصور الارتباطية العقل على ضوء الدماغ ومكوّناته. فكما نعلم يتشكل الدماغ من نيورونات وعلاقات عصبية بينها (والنيورونات خلايا عصبية قائمة في الدماغ)، وكلما ازدادت العلاقات الفسيولوجية بين النيورونات كلما زادت القدرات العقلية و تم تفعيلها. على هذا الأساس، تعتبر الارتباطية أن العقل يتكوّن من وحدات شبيهة بالنيورونات. وهذه الوحدات ترسل إشارات تثير وحدات أخرى أو تخمدها. وبذلك يتم تشغيل الوحدات أو منعها من أن تعمل، وهذا يعتمد على نتيجة تلك الوحدات المترابطة وقوة ترابطها. بالنسبة إلى هذا النموذج العلمي، كل الارتباطات بين الوحدات محلية بحيث أن كل وحدة تملك فقط المعلومات التي تتخذها من الوحدات الأخرى المرتبطة بها.

والمعلومات التي تكتسبها الوحدات تتشكل من إشارات بسيطة محدَّدة من قبل الوحدات الأخرى وقوة ترابطها. وبذلك لا تدرك أجزاء النظام العقلي ما يجري في أجزائه الأخرى ما يعني أنه لا

يوجد قائد يتحكم بالعقل ويشرف عليه على نقيض مما تدعي نظرية أن العقل كومبيوتر. ففي النموذج الكومبيوتري للعقل، ثمة برنامج يشرف على كل ما يحدث في العقل، لكن هذا المدير التنفيذي غائب في النموذج الارتباطي للعقل. ولأن الارتباطية تصور العقل بلا مديرتنفيذي يتحكم بكل أجزاء العمليات العقلية ويبرمجها على أساس برنامج وقوانين محددة، من الطبيعي إذن أن تقوم أجزاء الدماغ المختلفة بأعمال مختلفة في الوقت نفسه. هكذا تنجح الارتباطية في تفسير تلك الحقيقة السيكولوجية، وبذلك تكتسب بعض فضائلها.

ويقول الفيلسوفان هورغن و تينسن إن الحالات العقلية حالات رياضية تتجسد في حالات فيزيائية هي الشبكات النيورونية و شبيهاتها. هكذا يفسّران تجلي العقل في الدماغ. بالنسبة إليهما، العقل نظام ديناميكي يتكون من الوحدات الشبيهة بالنيورونات وارتباطاتها. لكن هذا النظام ليس نظاماً فيزيائياً بل هو نظام رياضي. فالعقل يشكل فضاء رياضياً بحيث أن أي نقطة في فضائه محددة من قبل قيمة كل وحدة شبيهة بالنيورون، وبذلك كل نقطة في الفضاء العقلي تتحدد على ضوء الشبكة النيورونية كلها. و الشبكات الارتباطية بين الوحدات تتخذ الآليات الفيزيائية المناسبة لتحقيق الفضاء الديناميكي الرياضي الممثل للعقل .

بالإضافة إلى ذلك، من منطلق الارتباطية يقدّم الفيلسوف بول تشرتشلاند موقف النيورو فلسفة التي تدرس العقل على ضوء البيولوجيا. النيورو فلسفة مصطلح يجمع بين مفهوم النيورون والفلسفة. النيورو فلسفة تحلّل العقل وتفسره على أنه مجموع النيورونات و العلاقات فيما بينها. لكن رغم ارتباط النيوروفلسفة بالارتباطية نراها تختلف عنها في كون النيورو فلسفة مذهباً فلسفياً يبنى على أساس الارتباطية كنظرية علمية. بالنسبة إلى تشرتشلاند، مفتاح فهم العقل يكمن في فهم الصفات الديناميكية الخاصة بالشبكات البيولوجية النيورونية. فالعقل هندسة دماغية تتضمن الدماغ الحيواني والأدمغة البشرية. يعتبر تشرتشلاند أن النظرية الصحيحة في تحليل العقل لا بد أن تكون جزءاً من النظرية العامة حول الأنظمة البيولوجية و التطور البيولوجي.

هكذا يكون المدخل العلمي الوحيد بالنسبة إليه هو دراسة العقل على أساس النموذج

الدماغي البيولوجي. وبذلك يغدو العقل مجرد نظام ارتباطي تماماً كالدماغ بحيث يتشكل من نيورونات والارتباطات فيما بينها. على هذا الأساس، إدراك العقل للعالم يعتمد على تشكيلة الارتباطات العصبية بين النيورونات الدماغية. ففهمنا للعالم يكمن في الأنماط المتعاقبة على النيورونات. وهذه الأنماط مصدرها مصفوفة الارتباطات العصبية التي تحول المعلومات من الحواس إلى الإدراك ومن ثم إلى الفعل و التصرف. هكذا يعتبر تشرتشلاند أن العقل نظام بيولوجي بامتياز ومن غير الممكن أن يكون غير شبيه بالنظام البيولوجي.

بالنسبة إلى النيورو فلسفة التي يدافع عنها تشرتشلاند، التصور العقلي للأشياء هو نسق تفعيل النيورونات. أما القدرة الحسابية للعقل فهي تحوّل نسق تفعيل النيورونات إلى نسق تفعيل آخر لتلك النيورونات. من هذا المنظور، المفاهيم نقاط أو أمكنة أو مسارات في فضاءات التفعيل النيوروني. هكذا بدلاً من أن يملك العقل لغة عقلية شبيهة بلغاتنا وبفضلها يفكّر ويدرك، بالنسبة إلى النيورو فلسفة قدرة العقل على التفكير والإدراك ليست سوى شبكة نيورونات الدماغ، شرط أن تكون هذه النيورونات فاعلة ومُثارة ومحققة لارتباطات فيما بينها. من هنا تتحوّل المفاهيم العقلية و اللغوية إلى جغرافيا وهندسة للفضاء الدماغي النيوروني. على هذا الأساس يعتبر تشرتشلاند أن اللغة قدرة بيولوجية على إدراك أدمغة الآخرين و التحكم بها بدلاً من أن تكون اللغة قدرة على انتاج و ادراك سلسلة من الكلمات؛ فمثلا كلام الفرد يثير القدرات العقلية للمتلقي. كما أنه بالنسبة إلى النيوروفلسفة التي يقدمها تشرتشلاند، العقل يدرك العالم من خلال خرائط من مقولات ومفاهيم. وهذه الخرائط تشبه العالَم الخارجي، ولذا يتم إدراك العالم المحيط بنا. لكن هذه الخرائط متجسدة في فضاءات تفعيل النيورونات، وكلما زاد تفعيل النيورونات وإثارتها كلما زادت القدرة الإدراكية للعقل.

من جهة أخرى، من الممكن دائماً طرح أفكار ممكنة، وهذا ما تقوم به العلوم والفلسفة. على هذا الأساس نقدّم الفيزيو فلسفة المشتقة من الفيزياء و الفلسفة. بالنسبة إلى الفيزيو فلسفة، لابد من دراسة العقل على ضوء الفيزياء بدلاً من البيولوجيا أو علم آخر. من هنا يكون العقل نظام فيزيائي تحكمه القوانين الطبيعية المعروفة في الفيزياء كقوانين ومبادئ ميكانيكا الكمّ . فمثلا ، تعتبر ميكانيكا

الكم أن الجسيم يعبر كل الممرات الممكنة في الوقت ذاته، لكن لتضارب وتناقض تلك الممرات تختزل بعضها البعض ويبقى للجسيم ممر واحد. من المنطلق ذاته، العقل يحتوي على كل المعتقدات الممكنة ولتناقضها تختزل بعضها البعض فتبقى بعض المعتقدات فقط التي لا تناقض بينها. هذه المعتقدات الباقية من جراء عدم اختزالها تشكل ما يعي العقل. هكذا تفسِّر الفيزيو فلسفة وتحلِّل ما يكوِّن الوعي؛ فالذي نعيه هو الذي لا يتم اختزاله من جراء عدم تناقضه مع معتقدات أخرى لدينا. من هنا كلما حصل تناقض اختزله العقل، ولذا يرفض العقل الاعتقاد بالمتناقضات.

ينجح هذا النموذج الفيزيائي للعقل في تفسير بعض الظواهر. فمثلاً، يؤكد الاختبار السيكولوجي على الحالة التالية: إذا ظهر منبه على شاشة ومن ثم ظهر منبه آخر على الشاشة ذاتها بعد فترة قصيرة جداً، سوف ندرك المنبه الثاني و ليس المنبه الأول. المنبه الأول قد يكون قرصاً ملوناً، والمنبه الثاني قد يكون خاتماً ملوناً يظهر تماماً خارج المنبه الأول فيكون المنبه الأول داخل المنبه الثاني. هنا المنبه الثاني يختزل المنبه الأول، ولذا ندرك المنبه الثاني وليس المنبه الأول. هكذا بالنسبة إلى الفيزيو فلسفة، بما أن ما نعيه هو الذي لا يتم اختزاله، إذن من الطبيعي أن نعي المنبه الثاني الذي لم يُختزَل وأن لا نعي المنبه الأول الذي تم اختزاله. من هنا تنجح الفيزيو فلسفة في تفسير الحالة السيكولوجية السابقة وبذلك تكتسب فضيلتها .

تضيف ميكانيكا الكم قائلة إن مبدأ اللايقين يحكم عالم ما دون الذرة. بالنسبة إلى هذا المبدأ، من غير المحدد معرفة سرعة الجسيم ومكانه في آن واحد. على أساس هذا النموذج الفيزيائي تعتبر الفيزيو فلسفة أن المعتقدات غير محددة. و بما أن معتقداتنا غير محددة، إذن المعتقدات ذاتها قد تؤدي إلى نتائج مختلفة ومتعارضة. هكذا تفسر الفيزيو فلسفة لماذا نصل إلى نتائج مختلفة من خلال المعتقدات ذاتها. فمثلاً، نعتقد علمياً أن الكون مسطح ومنسجم لكن هذا الاعتقاد يوصل بعض العلماء إلى اعتبار أن الكون قد تضخم في بدايته ولذا هو مسطح ومنسجم، و الاعتقاد ذاته يوصل علماء آخرين إلى الإعتقاد بأن الكون وجد نتيجة اصطدام غشاءين ولذا الكون مسطح ومنسجم. فرغم أن الكون هو ذاته الذي يسبب معتقداتنا، ولكننا نختلف في ما نستنتج منه، وبذلك تتنوع أنظمتنا

الفكرية. وهذا لأنه من غير المحدَّد ما هي مضامين معتقداتنا.

بالإضافة إلى ذلك، إحدى المشاكل الفلسفية و العلمية هي كيف يدرك العقل العالَم ويصوّره. للفيزيو فلسفة جوابها الخاص ألا وهو: بما أن المعتقدات الممكنة كافة محققة في عقلنا، إذن معتقداتنا هذه تعبِّر عن الأكوان الممكنة كافة و التي من ضمنها عالمنا الواقعي. لذا يتمكن العقل من إدراك العالَم وتصوّره. هكذا تنجح الفيزيو فلسفة في التعبير عن إمكانية إدراك العالم، وبذلك تكتسب فضائلها. ولكن لماذا لابد من دراسة العقل على أساس الفيزياء بدلاً من البيولوجيا أو علم آخر؟ جواب ذلك كامن في حقيقة أن الفيزياء أي العمليات الفيزيائية هي الأساس في تشكيل وتكوين كل شيء. فمثلاً، الظواهر البيولوجية كالخلايا و الأعصاب تتكوّن من ذرات وجسيماتها الفيزيائية المحكومة بقوانين الفيزياء. لذا لا بد من دراسة الأشياء كافة ومن ضمنها العقل على ضوء الفيزياء.

فلسفة الوجود المادي

لغوياً الوجود يقابله العدم، وإذا تركنا الوجود القديم وتتبعنا الكلمة في المفهوم اللغوي نجد أن معناه ا ينحصر في كل ما أوجده الله تعالى من العدم. فالوجود المادي واقع تحت أبصارنا نشاهده ونلمسه، ولا مجال لإنكاره، لأننا نتعامل مع مكوناته، وهو جملة الموجودات المادية بقوانينها كالأجرام السماوية السابحة فوق رؤوسنا، والأجسام المتحركة من حولنا. البحث في المادة قد تشعب وتفرع، بعد أن كانت العناصر أربعة :النار والماء والتراب والهواء. ولكن إذا كان وحدة تكوين الماء هى قطرة الماء ووحدة تكوين الترابة هى ذرة التراب ولكن مم تتكون الرياح والنار ما هى وحدة تركيبهما؟؟؟، فقد تجاوز عددها مئة عنصر في الطبيعة. مع العلم عزيزى القارئ أن ليست المادة تلك التي تتخذ من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقة، لأن الحقيقة المادية نفسها غير مدركة بالكامل فدائماً العلم مكتشف المادة فى تطور مستمر. فعلى سبيل المثال الحديد يتكون من جزيئات والجزيئات تتكون من ذات والذرات تتكون من إلكترونات (فى مستويات طاقة مختلفة) ونواة بينها وبين المستويات الطاقية مسافات فراغ كبيرة نسبياً فالمادة هى طاقة وفراغات.

فلسفة اللانهائى

كلمة لانهاية infinity تدل على "ما لا حدود له" أو "اللامنتهي" أو "غير المحدود" تستخدم بعدة مفاهيم مختلفة لكن يجمع بينها جميعا فكرة واحدة هي "عدم وجود نهاية" أو "شئ أكبر من أكبر شيء يمكن تخيله (ما لا يمكن تخيله أو تصوره). من هذا المنطلق فهي ترتبط بالفلسفة والرياضيات والإلهيات والحياة اليومية أيضا. وأوّل من استعمل الرمز المعروف الآن (∞) لهذا التعبير، كان جون والّيسن وهى لها قيمة رياضية تقاس به كمية غير محدودة ولكنها غير متغيرة وليس لها اتجاه. (∞) هى كيان مختلف عن أي كيان عددي آخر في خاصياته وسلوكه.

من أين جاءت فكرة اللانهاية إلى العقل البشري إذن؟ وهي فكرة مفقودة في الواقع؟

الفكرة المفقودة

الكيان اللانهائى هو دالة لقصور المتلقى عن الإدراك والإحاطة. في الفلسفة اللانهاية ترمز للمطلق أو أصل كل شيء. فالزمن، والفراغ، والكون، والروح، والمطلق، والغيب، هى أصول لا يمكن أدراكها فهى لا نهائية بالنسبة للإنسان والفكر الواعى. والإنسان يكفّ عن التفكير في هذه المسألة، ليس لأنه حصل على جواب، بل لأنه تعوّد على حالة لا يتلقى فيها جواباً على سؤاله، وينتهي الإشكال القائم في سؤاله باقياً على حاله لا يُحَل. ويبدو أنه من الصعب أن يتخيل الإنسان شيئاً بدون نهاية. بينما عدد الناس في العالم، وإن بلغ مليارات من الأفراد هو عدد نهائي. كذلك عدد الشّعرات في الرأس، وحتى عدد حبّات الرمل على الشاطئ هو عدد نهائي، يُمكننا، لو أوتينا الصبر والرغبة أن نعدّه، فلا نفرِّط في حبّة مِنه على كثرته.

الفيزياء والفلسفة

إن الفلسفة هى الحضن الدافيء والرقيق للفيزياء! فالعلّة الفيزيائيّة لا يمكن الوصول فيها إلى المراد في التفسير من دون طريق فلسفيّ يسبقه. لقد لعبت الفلسفة الدور الأكبر في إيصالنا إلى

نظريّات وفرضيّات لا حدّ لها في علم العلوم(الفيزياء). لقد قلت وإدّعيت يوماً إلى أنه لولا الفلسفة ما وصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من تقدّم هائل في هذا المجال! وإليك بعضاً من هذا الإدّعاء!

أوّلاً: لقد كانت الفيزياء والرياضيّات مثل الدويتو الغنائي لا يمكن الفصل بين الاثنين بسهولة في أكثر الأحيان! ونحن نعرف أنّ الرياضيّات لا يمكن فهما بشكل صحيح إلا بالفلسفة! فالصفر والعدد وحركة العمليّات الأربع وحالة التساوي والتضاعف والتناقص والفوق والتحت، اليمين واليسار، المنطق والجدل الرياضيّ والرياضيّات التجريديّة وغير ذلك كلّها تحتاج وقد احتاجت بالفعل وعزّزت بالفلسفة، قبل وبعد وضع القاعدة الرياضيّة! وبالتالي نعتبر الرياضيّات لغة موفّقة للفيزياء وبذلك نصل إلى أهميّة الفلسفة للفيزياء مروراً بالرياضيّات. بالإضافة إلى إعتبار الفلسفة أصلاً، تعبيراً عالي المستوى لفهم وإدراك وإبرام المنطق الفيزيائيّ.

ثانياً: عندما نريد أن نتحاور مع مسائل فيزيائيّة معقّدة ترتبط بظواهر حسيّة أو بصريّة نحتاج أكثر ما نحتاج إلى حوار صامت نتأمّل من خلاله ما وراء التفسير الظاهر، وهذا عين الفرضيّة التي توصلنا إلى طريق صحيح للبحث عن الحقيقة المطلقة.

أكثر ما يؤرّق الكثير من علماء الفيزياء هو الحوار المستمرّ الذي يستهلك التأمّل والذي نحتاجه أكثر من حوار كهذا "فهم يتدبّرون بكلّ شيء للوصول إلى التفسيرات العجيبة ونحن نقضي الوقت الثمين في تصريحات من سيستلم الحكومة المبجّلة السيد سين المخلص جداً أو السيد صاد المخلص جداً لهذا الوطن الذي فرضت عليه مجاميع عبادة الكراسي" هكذا هو الحوار الأعقد والأسهل بنفس الآن! التدبّر والاستنباط، التفكّر والنزول إلى حقل التجربة. تدبّر في القول الذي أوجد لنا عالمنا الكبير من خلال العالم الدقيق!!.

إنّهما عالمان يقعان على طرفي الكون المترامي الذي نراه في مخيلتنا أكثر وأدقّ من أعتى المجاهر، حيث يقول الإمام عليّ عليه السلام: تحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!.

والفلسفة تجمع بين الإثنين بتحدّ لا سبيل لنكرانه! حيث تقول الفلسفة أنّه عند ظروف معيّنة يمكن للكون أن يحتوي خصائص جسيم دقيق وأنّ لهذا الجسيم الدقيق القدرة على أن يحوي عوالم

كونيّة متكاملة! وهذا يتّفق بدقّة مع العديد من النظريّات الفيزيائيّة المعاصرة التي تشرح أنظمة معقّدة بأسلوب فلسفيّ رياضيّ وفيزيائيّ تستطيع أنت أن تحسّه وتلمسه بقلبك وعقلك وحتى بيدك الجميلة!

لقد قالت الفلسفة أنّ الأجزاء الصغيرة للجسيم الأساس أكبر وأثقل من الجسيم نفسه! ويمكن لجسيم ما أن يكون موجوداً في عدة أماكن في نفس الوقت! وقد شرحت لنا الرياضيّات الفيزيائيّة المعاصرة المستندة على نظريات آينشتاين وهايزنبرغ وشرودنغر هذا الرأي الفلسفيّ ليخرج لنا مبدأ جديد رائع يدرّس في جامعاتنا على أنّه حقيقة لا مجال لنكرانها!

المعروف عن جسيمات التكوين الدقيق أنّ لها كتلة صغيرة جداً إلى الدرجة التي فيها إن تفاعلت مع أيّ شعاع ضوئيّ أو إلكترونيّ يؤدي به إلى الزعل والهروب لغير موضعه بشكل سريع! أي أنّنا لن نستطيع المسك به لدراسته، حينها نأخذ معلوماتنا عنه وعن تركيباته بالتحليل الرياضيّ المستند على البعد الفلسفي الإستغراقيّ (حالات التأمّل التي يستطيع بها ومعها كشف بعض الأسرار الوجوديّة غير الملموسة وغير المحسوسة إلا له! فيعرف المؤثّر لا الأثر! والوصول إلى درب السالكين إلى صاحب الجلال والجمال والإنبثاق والولوج في هذا الكون الواسع).

ألم يكن غاليليو فيلسوفاً عبقريّاً توصّل إلى الكثير من الاكتشافات من خلال الاستغراق الغيبيّ ليصل إلى مرحلة التصميم ثمّ البحث والتفتيش للوصول إلى إكتشافاته العظيمة في علم الفلك! وقد أدّت إكتشافاته إلى تغييرات جذريّة في صورة العالم العلميّة. وفيما يتعلّق بنظريّة الكون الحركيّ التوسّعي والدائم في حركة التوسّع، وعلم الكون الكمّي وما توصّل إليه العلماء من معلومات حول الثقوب السوداء التي يعتبر وجودها في هذا الكون وجوداً حتميّاً في الجانبين الرياضيّ والفلسفيّ والتي تنبأت بها نظريّة النسبيّة العامّة (الكثير ممّا تتطرّق له النسبيّة العامة لا يدخل في حدود العقل التقليديّ وإلا كيف يستطيع إنسان عادي أن يتصوّر عالماً أو كوناً لا وجود فيه لليمين أو اليسار أو لا وجود للأعلى والأسفل أو كيف يمكن التوفيق بين العقل الصحيح والتجربة التي تؤكّد وجود ميزون داخل البروتون وأنّ الميزون نفسه يمتلك بروتوناً! أي لا يمكن لإنسان أن يستوعب هذا دون التفكّر والتدبّر والفهم المتقدّم للكثير بما يرتبط بالفلسفة أو الضرورات التي تتيح للعقل أن يسبح في عوالم غير تلك

العوالم!).

علاوة على ما تفسّره النظريّات الفيزيائيّة من فلسفة فيزيائيّة وفيزياء فلسفيّة فيما يتعلّق بالإنتروبيّ الكونيّ (حاصل قسمة كمية الحرارة في الكون على درجة حرارة الكون والتي تكون بين العمليات الأديباتيّة، يساوي مقداراً ثابتاً وهذا الثابت هو الإنتروبيّ حيث أنّ التغيّر في كمية الحرارة يساوي صفراً وعليه يكون التغيّر في الإنتروبيّ يساوي صفراً أيضاً). و إنّ أوّل من فكّر في الموت الحراريّ للكون هو بولتزمان الذي بحث عن معنى درجة الحرارة والإنتروبيّ للمادة والذي قاده إلى إكتشاف الكثير الذي أدى إلى إكتشاف الذرة ثمّ إلى إكتشاف الفوتونات. وفي الدراسات المعمّقة الحاليّة يبحث العلماء عن معنى درجة الحرارة والإنتروبيّ للثقوب السوداء والذي سيؤدي إلى معرفة حقيقة بناء الكون من خلال معرفة البناء الأوّل للذرّة الأولى.

وهنا نشير إلى واحدة من الطرف التي مازالت تأخذ وضعاً رائعاً في الجانب الفلسفيّ فيما يتعلّق بمسألة الحضارات خارج كوكب الأرض. حيث هناك العديد من النماذج من السيناريوهات الممكنة والتي يمكن تنميتها وتوفير الأجواء الجميلة لتحمّل فكرة الخلق في الجانب الأخر من الكون! ولقد لعبت نظرية النسبيّة لأنشتاين دوراً كبيرا في قبول حقائق فيزيائيّة وهي المستندة إلى الفلسفة أصلا كما أشرنا. لكنّ الطريف الذي مازالت تتحدّى فيه الفلسفة العلم الحاليّ لتحثّ العلماء على العمل والتبصّر هو طرفة وجود جسيمات ذات سرعة أكبر من سرعة الضوء وهذه الجسيمات هي التي أطلق عليها بالتخيونات (بإعتبار أنّ الفلسفة منفتحة على عقل الإنسان الذي يستوعب أشياء أعظم من الوقوف عند معياريّة سرعة الضوء!) والتخيون مصطلح من الإغريقيّة يعني السريع.

نواة الظاهر والمظاهر

النور هو الحق بذاته الذى يبرهن على نفسه بنفسه بمحض حضوره دون الحاجة إلى وسائط .... وهو الذى يخرج الأشياء إلى عالم الظهور والعيان فالأشياء تعتمد عليه فى ظهورها وهو لا يعتمد عليها فى ظهوره فهو برهانها وهى لا تصلح أن تكون برهانه. فهناك فرق بين

الظاهر وبين المظاهر: فالظاهر يظهر فى المظاهر دون أن تحصره أو تحتويه أو تستنفده .... فهو يتجلى فيها بصفاته وأسمائه التى لا حصر لها. أما المظاهر فهى وحدات محددوة هى شتيت من أجزاء.. براويز مختلفة وإطارات متباينة يتجلى من خلفها حكم الأسماء والصفات النوارنية.

فالكون والوجود والتاريخ أشبه بحجر رشيد... يخيل للرائى الذى يراه للوهلة الأولى أنه يرى نغبشه وشخابيط بلا معنى على الحجر.. كما يخيل له أنه تاريخ مجموعة من حوادث عشوائية ومصادفات.. ولكن العارف يستطيع أن يفض الشفرة الإلهية للحوادث ويدرك مضمونها وحركتها ومسارها وحكمتها... كما كشف شمبوليون شفرة الهيروغليفية على حجر رشيد وتمكن من قراءته... فإذا بكل شئ له معنى وإذا بكل مصادفة تافهة لها مكانها فى الخطة الإلهية الشاملة.. والحياة لذة عظيمة عند أصحاب الهمم والبصائر لأنها قراءة هادئة ممتعة لسطور الحكمة الأزلية فى كتاب الكون الذى تتعاقب صفحاته عبر أمام العين كل اليوم.

ويقول الصوفى الفقير الذى يلبس الخرقة... نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف... واللذة التى يروى عنها الصوفى هى لذة شهود الله فى آيات عظمته وروائع حكمته.... هى تلك القراءة المتأنية لشفرة الوجود والاستبصار لخبايا الأقدار..

فالعلم هو إدراك الجزيئات الحيوية وغير الحيوية فى حركتها وسكونها وقوانينها وهو علم بالمقادير والكميات والعلاقات ولكن العلم عاجز عن إدراك الماهيات والحقائق النهائية وهو فى هذا المقام أداة ناقصه مضللة. فالعلم حجاب على المعلوم والعالم محتجب باليقظة كما أن الجاهل محتجب بالغفلة لأن العلم يشتت عقل العالم بين أجزاء ووجهات النظر.... فالعلم ذو طرقات ذوات فجاج والفجاج ذوات مخارج والمخارج ذوات اختلاف والاختلاف متاهه.. والعقل إذا درى رجح بين احتمالات ووقع فى المختلفات.

وحينما يصل العابد إلى منتهى المعرفة ويدرك جهله أمام الذات وعجز جميع وسائله يبدأ آخر مراحل هجرته إلى الله بالتجرد من هذه الوسائل والخروج منها.. فهو يخرج من كل ما

يبدو مما سوى الخالق.... يخرج عن علمه وعمله ومعرفته ونفسه وصفته وأسمه ويخرج عن الحرف والعبارة.

الفسفة ثم ماذا؟

الدرس الفلسفي اليوم هو حاوية كبرى لمجموع أضداد وتناقضات وتحولات المشهد الفكري المعاصربكل ما اختلط فيه من عناصر فكرية وأدبية وجمالية لا يكاد يحصرها مبحث شامل او ينظرها معاين تاريخي. ولعل ماجلبته الحداثة ومابعدها إلى الفلسفة اليوم هو تكريس أكبر عمليات هدم معرفي تلك التي تمركزت على افراغ حمولة العقل من أوهامه (الميتافيزيقية) و(التاريخية) و (الوضعية) لصالح آفاق ومسطحات أخرى تقوم على إعطاء دفقة أكبر للاعتباط اللغوي ولعبة (الأوهام) و (التمثيل المعرفي) انطلاقا من فكرة لاتخلو من بصمات (نيتشه) القائلة بضعف منطق (الحقيقة) وخلو العالم من (النسقية العقلانية) أو (السببية التامة) التي تؤهله لأن يكون عالما (انسانياً) مفرط بالإنسانية وهو عالم انتهى على أيدي الكبار من مكافحي العقلانية اليوم إلى مجرد عالم موضوعي بلا ذات عارفة، وعالم لغوي شامل يتخطى الذات والموضوع معا. ولعل غاية ما توصلت إليه نظم المعرفة اليوم وبعد إرهاصات ومحاولات أولية هي تلك الفكرة القائلة (بموت الفلسفة) كما نجدها في كامل نضجها لدى (مشيل فوكو) و (جيل دولوز) وهي امتداد لميتات أخرى مثل و(موت الانسان) و(موت المؤلف) وبالتالي (موت الفلسفة)، تلك الميتات الناضجة التي حولت نهايات القرن العشرين إلى نهايات معرفية كبرى ،ومراجعات سلبية وانتحارات (تصورية) أدت الى رفع الحد الفاصل بين (المعرفة) و(الوهم) و (الحقيقة) و (التمثل) وامتزاج (العيني) بـ (الاشهاري) كما هو حاصل في التداعيات الأخيرة لفكر (مابعد الحداثة) في طروحات لوتيار وبورديار الأخيرة .

إن هدف هذه المحاولة هو فحص وتتبع الأنساق المعرفية الكبرى في اللعبة الفلسفية اليوم التي افضت الى مقولة (موت الفلسفة)، وما اذا كانت الفلسفة قد ماتت حقا؟ أم أن موت الفلسفة ماهو إلا طور من أطوار تخطيها والذهاب إلى (ما بعدها)؟ وكيف يمكن للخطاب الفلسفي المعاصر

أن يحيا هو الآخر داخل مشهد الموت الفلسفي المعاصر؟ وهل تعد الفلسفة اليوم منظومة خاوية من الأفكار والتصورات أم هي العامل الأساسي في صناعة موت (الآخرين) والحد من طغيانهم الوجودي في ضوء الإشكاليات الكبرى للوجود والعدم واللغة أو ما نسل عنها من ثيمات الهوية والآخر والمركزية العقلية الغربية،تلك الاشكاليات التي ما زالت تغذي مناهج البحث الانساني بالرغم من تغير الوسائل المعرفية وتسارع لعبة التقنيات التفسيرية وتقاطع جهوياتها النظرية والعملية! وعليه فان لهذه الدراسة حدودا معينة أبرزها انعدام الأحكام أو إطلاقها وخلوها كما أرجو من الانبهار بالآخر الغربي أو الغير الأجنبي، وأخيرا هي قراءة بصوت عال أكثر منها كتابة مبيتة ومصنوعة جيدا ،بدون أخطاء ضرورية وتناقضات صحية لابد منها فالذي يريد أن يسلك مغامرة الرؤية لا باس أن تدخل إلى عينيه بعض الضلال فلا يمكن رؤية الشمس مباشرة. ولنا الحق إزاء التباس مشهد عصرنا الفكري أن نعتبر سؤال فهم طريقا موازيا للفهم ان لم يكن منافسه الأكبر وعلى ذلك فإن السؤال الذي نجمع عليه اليوم هو مالذي يحدث في فكر مابعد الفلسفة ؟ ومن اي فكر نسلك هذا السؤال وكيف ولد ونما وتبلور وتنسق وتخلق وهل ما زلنا قادرين على تثبيت فكر متحرر وهائج كهذا الفكر، فضلا عن سؤال ألا صالة والتوصل والمسيرة والحيرة والقلق على الفهم أو عدمه. لعل تلك مبررات كافيه لأن نبدأ رحلة مع ما هو متحول ومتسارع وخاطر وعابر وإن كان ذلك لا يفضي إلى نتائج حاسمة أو شواطئ مريحة. ولكن ما نفع الموجة إن لن لم ترقص في اعماق البحر وتصير تيها وسمكة وأثر الا يقع عليه حافر. ومانفع الفكر إذا لا يقدم على لحس عدمه وابتلاع سؤاله المصيري إلى النهاية ومن النهايات بنبأ ونبتدئ مرة أخرى .